من أخلاق المؤمنين:

الأدب

قال أحد الصالحين: التوحيد موجب الإيمان. فمن لا إيمان له لا توحيد له... والإيمان موجب يوجب الشريعة. فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد... والشريعة موجب توجب الأدب. فمن لا أدب له لاشريعة ولا إيمان ولا توحيد.

الأدب

من الأخلاق الحسنة التى ينبغى أن يتصف بها المؤمن خلق الأدب. وهو أن يجمع الإنسان خصال الخير الحسنة وأن يتخلى عن أضدادها. والمؤمن مطالب بأن يكون مؤدبا مع ربه عز وجل وأن يكون مؤدبا مع رسوله ﷺ. وأن يكون مؤدبا مع إخوانه المسلمين.

وعلى ذلك فالأدب ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ - أدب مع الله عز وجل. ب - أدب مع الرسول ﷺ.

ج - أدب مع الخلق.

ووردت كلمة الأدب فى قوله ﷺ: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» [1] - وفى غير ذلك من الأحاديث كما سنبين. وورد ما يدل على الأدب فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[2]... فالمؤمنون مأ الإنسان به نفسه بأن يلزمها الجادة الواضحة والصراط المستقيم - صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض. فلا إفراط ولا تفريط... وهذا هو الأدب - لذلك فسر بن عباس الآية بقوله: أدبوهم وعلموهم. والحق أن الإنسان المؤدب يكون محل رضا ومحل تقدير واحترام وهذا هو ما يليق بالمسلم.

وفى ذروة الأدب مع الله عز وجل أنبياء الله ورسله. فهم أعلم الناس بربهم وأعلم الناس بالأدب معه سبحانه وتعالى - وفى طليعة هؤلاء رسول الله ﷺ ونذكر من أدبه ﷺ ما يأتى:

١- أدبه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ووقوفه بين يدى ربه خاشعا لا يلتفت يمنه ولا يسرة. مما جعله أهلا لأن يثنى عليه ربه فى محكم القرآن الكريم لقوله عز من قائل:{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [3]. ولعل المراد أنه ما تلفت يمينا ولا شمالا ولا جاوز ما أمر به بعد أن غشى السدرة ما غشيها من أنوار الله تعالى. فلم يصرف بصره ﷺ عن أنوار ربه التى أشرقت على سدرة المنتهى. وهذا منتهى الأدب مع ربه.

---

(١) هذا الحديث صحيح المعنى ضعيف المبنى كما قال الشيخ الألبانى رحمه الله.

(٢) سورة التحريم. الآية رقم (٦).

(٣) سورة النجم. الآية رقم (١٧).

قال أحد الصالحين: رأيت الجنة والنار حقيقة. فقيل له: كيف رأيتهما وأنت فى الدنيا؟ فقال: رآهما ﷺ بعينيه ليلة الإسراء والمعراج فرأيتهما بعينيه. ورؤيتى لهما بعينى رسول الله ﷺ أثبت وأكد عندى من رؤيتى لهما بعينى. فبصرى قد يزيغ لكن بصر رسول الله ﷺ لا يزيغ{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}.

وإذا كان هذا حال بصره ﷺ فإن حال فؤاده الشريف أيضا كان مطمئنا{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} (١) - فقد تأدب باطنه وظاهره وتواطأ القلب والقالب واتفقا وللقلب زيغ وطغيان بأن يفكر فى غير ما هو فى حضرته. وللبصر زيغ وطغيان أيضا بأن يلتفت أو يتطلع إلى ما هو أمامه فمن أدبه ﷺ مع ربه فى هذا المقام المشهود أن قلبه الشريف لم يعرض عن ربه. وبصره الشريف لم يزغ ولم يطغ... وهذا هو الأدب الحقيقى أدب محمد ﷺ مع ربه.

إن سيدنا رسول الله ﷺ وسيدنا موسى عليه السلام كلاهما أقامه ربه فى موقف التكليم والمناجاة. غير أن موسى عليه السلام طلب من ربه أن يراه -{رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} (٢) - ولكن محمدا ﷺ لم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه. ومن أدبه ﷺ مع ربه أنه خيره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فقال الله له ﷺ: " بم تحب أن أشرفك "؟ فقال ﷺ: " أن تنسبنى إلى ربك بالعبودية " -{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} (٣).

ونتناول بعض آيات من القرآن الكريم وردت على ألسنة بعض الأنبياء والصالحين تبين أدبهم مع ربهم. من هؤلاء...

١- إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام فى قوله كما روى القرآن الكريم:{الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} (٤). فقد نسب الخلق والطعام والسقيا إلى الله لأنها نعم فنسبها إلى المنعم الحقيقى وهو رب العالمين. ونسب المرض إلى نفسه تأدبا مع ربه - فلم يقل مثلا: "أمرضنى " - مع يقينه التام أن الصحة والمرض بيده -{قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ} - لكنه أدب الخليل مع ربه.

---

(١) سورة النجم. الآية رقم (١١).
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (١٤٣).
(٣) أول سورة الإسراء.
(٤) سورة الشعراء. الآيات أرقام (٧٨، ٧٩، ٨٠).

٢- آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام تضرع إلى ربه هو وزوجه حواء -{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [١] - فاعترفا بذنبهما حين أكلا من الشجرة - ولم يقولا مثلا: " هذا قضاؤك وقدرك يا ربنا " - فنسبة الظلم إلى نفسيهما أدب حق الأدب. ولو قالا كما يقول بعض أبنائهما: " هذا شيء قضاه الله وقدره ربنا " لكانا قد أساء الأدب.

لقد كان بعض أبنائهم سيىء الأدب مع الله حين قالوا:{لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم} فقد أرجعوا عبادة الأصنام إلى مشيئة الله. والله يرد عليهم بعدها مباشرة بقوله:{مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}[٢] وقال تعالى:{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ}. والقرآن يرد عليهم فى نفس الآية:{قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} [٣].

٣- الخضر عليه السلام كان حسن الأدب مع ربه حين فسر ما فعله لسيدنا موسى عليه السلام وذلك أنه نسب عيب السفينة إلى نفسه فقال:{فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} ونسب إرادة الخير لوالدى الغلام وبناء الجدار إلى الله سبحانه وتعالى. قال تعالى:{فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً} وقال:{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}[٤].

٤- ومما يجرى هذا المجرى قول مؤمنى الجن:{وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً} [٥]. ففى الحديث عن الشر قالوا " أريد " - بالبناء للمجهول - وفى الحديث عن الرشد قالوا: " أراد بهم ربهم رشدا" فأسندوا الإرادة إلى الله... وهذا من حسن الأدب.

٥- أيوب عيه السلام قال بعد أن دام مرضه ثمانى عشرة سنة:{أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} - فلم يقل: " مستنى الضر ". وأيضا لم يطلب كشف الضر عن

---

(١) سورة الأعراف. الآية رقم (٢٣).
(٢) سورة الزخرف. الآية رقم (٢٠)... ومعنى قوله: (يخرصون) أى يكذبون.
(٣) سورة الأنعام. الآية رقم (١٤٨).
(٤) سورة الكهف. الآيات أرقام (٧٩، ٨١، ٨٢).
(٥) سورة الجن. الآية رقم (١٠).

نفسه فلم يقل مثلا: " رب اشفنى وعافنى ". بل أثنى على ربه بأنه أرحم الراحمين[1] - وكشف الله عنه ضره ووهب له أهله ومثلهم معهم... وهذا حسن أدب منه مع ربه [2].

٦- موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وسقى للمرأتين جلسا فى الظل وتوجه إلى الله بقوله:{رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [3] - فلم يقل مثلا: " رب إنى جائع وبلا مأوى وغريب بلا أهل " - واستجاب الله له وزوجه وأوجد له أهلاً وعملاً وطعاماً ثم اجتباه رسولا.

٧- سيدنا يوسف عليه السلام حين جاء أبوه وأخوته إلى مصر وخروا له سجداً كان مؤدباً مع ربه عز وجل كما كان مؤدباً مع أبيه ومع إخوته وذلك فى قوله تعالى حاكياً عن هذا الموقف:{هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}[4]... ففى هذه الآية من الآداب ما يلى:

* أسند خروجه من السجن إلى ربه ولم يسنده للملك. وذكر السجن ولم يذكر الجب - فلم يقل: " أخرجنى من الجب " - لأنه لو قال ذلك لكان فيه تذكيرا لما صنعه به أخوته فهم الذين ألقوه فى الجب - فكان مؤدبا مع إخوته بعد أدبه مع ربه.

* وقال:{وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ} - لم يقل لهم: " أنقذكم من الجوع والحاجة والقحط فى باديتكم "... وهذا أدب مع أبيه وإخوته [5].

---

(١) سورة الأنبياء. الآية رقم (٨٣).

(٢) وأيضا من أدبه عليه السلام أنه نسب مرضه إلى الشيطان فقال: (أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب). وهذا من الأدب مع الله أنا نسب الخير إلى الله تعالى ونسب الشر لأنفسنا أو للشيطان... ويؤكد هذا المعنى أيضا ما نسبه غلام موسى عليه السلام من نسيان الحوت ووقوعه فى البحر إلى الشيطان. قال تعالى على لسانه: (فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) سورة الكهف. الآية رقم (٦٣) وما قاله نبى الله يوسف عليه السلام من أن الشيطان هو الذى أوقع العداوة بينه وبين إخوته حين رموه فى الجب وآذوه. قال تعالى حاكيا كلامه: (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) سورة يوسف الآية رقم (١٠٠).

(٣) سورة القصص. الآية رقم (٢٤)... وأدب موسى عليه السلام يعلمنا ألا نشترط شيئا معينا على الله فى الدعاء. بل نتذلل له ونسأله من خيره إنه سميع قريب.

(٤) سورة يوسف. الآية رقم (١٠٠).

(٥) ومن أدبه أيضا أنه لم يمتن على أبيه وإخوته فلم يقل: أنا الذى جئت بكم وفعلت وفعلت. بل نسب الخير كله لله ونسى نفسه... وهذا شأن المسلم. قال تعالى: (لا تقتلوا صدقاتكم بالمن والأذى) سورة البقرة.

* وقال:{مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْـوَتِي}. فنسب ما حدث لـه من إخوته إلى الشيطان - ولم يقل مثلا: " من بعد أن تأمر على إخوتى " وكل هذا أدب رشاد منه عليه السلام.

٨- تعالوا ننظر إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام حينما قال الله:{يَا عِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ} [1] - فلم يقل مثلا: " لم أقل ذلك " - ولو قال ذلك لكان فيه تزكية لنفسه ومدح لها وهو فى موقف بين يدى الله يستدعى الخشوع والخضوع وهضم النفس. فكان مثالا للنبى المؤدب مع ربه فقال:{سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}. فبدأ أولا بتنزيه الله عن هذا الشرك الذى صدر من قوله. ثم عقب ذلك بأنه ما يكون له أن يقول قولا بغير حق. ثم فوض أمره إلى الله بأن علمه تعالى قد أحاط بذلك فقال:{إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ}. فلم يزك نفسه بنفى القول عنها. ثم نفى عن نفسه أن يعلم غيب ربه بل ربه يعلم الغيب كله فقال:{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}. ثم أكد علمه بقوله:{إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} ولاحظ ما فى هذه الجملة الشريفة من مؤكدات أكد بها علمه سبحانه وتعالى. فقد أكد.. (بأن) وبالضمير المنفصل " أنت " وبصيغة المبالغة: " علام ". وبجمع الغيب: " الغيوب ". وكل ذلك ليثبت لربه علمه الكامل ولينفى عن نفسه العلم بالغيب.

ثم بعد هذا الثناء على الله بين ما قاله لهم فقال:{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِـهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}. وأنظر إلى القصر بالنفى والاستثناء ثم التفسير بعد الإجمال فى قوله:{مَا أَمَرْتَنِي بِهِ} فسره بعد ذلك بقوله:{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}. فهو يظهر لربه أنه بلغ ما أمر به ولم يتعد ذلك... وانظر لقوله " ما قلت لهم " - فلم يقل لهم " ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به " ولو قال ذلك لدل على أن له أمرا مع الله وهذا سوء أدب. وعبر عن تبليغ رسالته بأنه " قول منه وأمر من الله "... وهذا حسن أدب.

ثم قال بعد ذلك:{وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}. فقد أخبر عليه السلام أنه كان مراقبا لهم مدة حياته. وبعد وفاته لايعلم من أمرهم شيئا وإنما العلم كله لله.

الآية رقم (٢٦٤).

(١) سورة المائدة. الآية رقم (١١٦).

ثم قال بعد ذلك:{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ}. وهذا التعبير غاية فى حسن الأدب مع الله. فقد بين إستحقاقهم للعذاب بأنهم عباده. والسيد دائما ما يكون رؤوفا بعبيده. فإذا عذبهم فلن يكون ذلك إلا إذا كانوا عبيد سوء. والله تعالى أرحم الراحمين فلا يعذبهم إلا إذا كانوا يستحقون ذلك. وهذا اعتراف من السيد المسيح بعدل الله وحكمته.

ثم قال:{وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} والمسيح هنا يذكر ربه ووصفه بصفة العزة والحكمة ليبين أن المغفرة لو حصلت لكانت من موقع كمال القدرة وليست عن عجز. وهذا أفضل مما لو قال مثلا: " إنك أنت الغفور الرحيم " لأشعر ذلك أنه يستعطفه عليهم والموقف موقف غضب من الله. فالله لا يغفر أن يشرك به وعلى المسيح أن يكون فى موقفه موافقا لربه. فهو ليس أرأف أو أرحم من ربه... ويكون المعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك من كمال القدرة عليهم والعلم بهم وليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا خفاء عليك بمقدار جرائمهم [1]. ويكون السيد المسيح قد فوض الأمر كلية إلى الله.

وفى الإسلام آداب كثيرة ينبغى للمسلم أن يتصف بها ليكون مؤدباً مع ربه... فالاستنجاء والوضوء أو الغسل كل هذه أشياء على المؤمن أن يحرص عليها حين يقف بين يدى ربه مصلياً أو تالياً للقرآن الكريم. وكان الصالحون يتجملون فى صلاتهم لموقفهم بين يدى ربهم ولعل ذلك يكون مستمداً من قوله تعالى:{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}[2] - فلم يكتف الله بستر العورة فقط - فقد قيل فى سبب النزول أن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عرا ة - الرجال بالنهار والنساء بالليل - وتعليلهم أن هذه الثياب قد عصوا الله فيها فلا تكون عليهم وهم يتقربون إلى الله فعاب الله عليهم ذلك وأمر بالتزين والتجمل خاصة عند دخول المساجد لأداء الصلاة ومن السنة التزين بأجود الثياب فى الجمع والأعياد.

ومن أدب المسلم مع ربه أن يقف عند حدود ما شرع ولا يتعداه. واسمع هذا الحوار الذى دار بين عثمان بن مظعون رضى الله عنه وبين رسول الله ﷺ يروى أن عثمان بن مظعون أتى رسول الله ﷺ وقال: «**غلبنى حديث النفس فعزمت على أن اختصى. فقال**

(١) كتاب مدارج السالكين لابن القيم. الجزء رقم (٢).. الصفحة رقم (٣٩٥).
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (٣١).

ﷺ : مهلا يا عثمان إن خصاء أمتى الصيام. قال: إن نفسى تحدثنى بالزهد. فقال ﷺ : إن زهد أمتى فى القعد فى المساجد لإنتظار الصلاة. فقال: إن نفسى تحدثنى بالسياحة فقال ﷺ : سياحة أمتى الغزو والحج والعمرة. فقال: إن نفسى تحدثنى أن أخرج مما أملك فقال ﷺ: الأولى أن تكفى نفسك وعيالك وأن ترحم اليتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك. قال: إن نفسى تحدثنى أن أطلق خولة. فقال ﷺ : إن الهجرة فى أمتى هجرة ما حرم الله. قال: إن نفسى تحدثنى ألا أغشاها. فقال ﷺ : إن المسلم إذا غشى أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولدا كان له وصيف فى الجنة وإن كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرح به يوم القيامة. وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعا ورحمة يوم القيامة. قال عثمان: إن نفسى تحدثنى ألا آكل اللحم. قال ﷺ : مهلا إنى آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعل. قال: إن نفسى تحدثنى ألا أتطيب. قال ﷺ : مهلا فإن جبريل أمرنى بالطيب وقال لا تتركه يوم الجمعة. ثم قال ﷺ : يا عثمان... لا ترغب عن سنتى فإن من رغب عن سنتى ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضى».

ومن آداب المسلم مع ربه ألا يرفع بصره إلى السماء وهو فى صلاته. قال ﷺ: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة أو لتخطفن أبصارهم» [(١)]. ويكره كل ما يخل بالخشوع فمن الأدب الوقوف بين يدى الله وقوفا على الأدب. وإذا كان بعض الناس يقفون بين يدى ملوكهم ورؤسائهم مطرقين إلى الأرض فوقوفهم بين يدى ملك الملوك أحق وأولى.

ومن تمام الأدب عدم العبث بالثوب أو بالبدن أو وضع اليد على الخاصرة والنظر إلى ما يلهى عن الصلاة - قال تعالى:{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ} - سئل عقبة بن عامر عن هذه الآية: أهم الذين يصلون دائما؟ قال: لا. ولكن إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله[(٢)]. ونأتى إلى الأدب مع رسول الله ﷺ فلقد أدبنا الله تبارك وتعالى مع نبيه

(١) رواه أحمد وسلم - والثانى فى فقه السنة.

(٢) مدارج السالكين. الجزء رقم (٢). الصفحة رقم (٢٠٤)... يلخص الإمام ابن سيرين الأدب مع الله بقوله حين سئل أى الأدب أقرب إلى الله؟ فقال: معرفة بربوبيته. وعمل بطاعته. والحمد لله على السراء. والصبر على الضراء... وقال سعيد بن المسيب مؤكدا هذا المعنى: من لم يعرف ما لله عز وجل عليه فى نفسه ولم يتأدب بأمره ونهيه كان من الأدب عزله... وفى فضل الأدب مع الله يقول الأستاذ أبو على الدقاق: العبد يصل بطاعته إلى الجنة وبأدبه فى طاعته إلى الله.

ﷺ وسلم. ففى سورة الحجرات من هذه الآداب آداب يجب أن يتحلى بها المؤمن المحب لرسوله. ومنها: ألا نتقدم برأى قبل رأيه ولا بنهى ولا بأمر قبل نهيه وأمره ﷺ قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}. ألا ترفع الأصوات فوق صوته ﷺ ولا فوق أحاديثه - بعد أن لحق بالرفيق الأعلى - قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ}. [1] يروى أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين ناظر الإمام مالكا فى مسجد رسول الله ﷺ. فقال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال:{لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} ومدح قوم فقال:{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}. وذم قوما فقال:{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}... وإن حرمة رسول الله ﷺ ميتا كحرمته حيا. فاستكان لها جعفر وقال: يا أبا عبدالله أأستقبل القبلة وأدعوا أم أستقبل رسول الله؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة. بل استقبله واستشفع به يشفعك الله. قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} [2]. وكان عبدالرحمن بن مهدى إذا قرأ حديثا أمر الحاضرين بالسكوت وقال: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى.

ويحلو الحديث ويعذب حينما نذكر طرفا من آداب أحباب رسول ﷺ مع حديثه ﷺ كان الإمام مالك إذا أراد أن يحدث عن رسول الله ﷺ توضأ وتهيأ ولبس ثيابه وكان إذا أتاه من يريدون التعلم منه أرسل إليهم الجارية لتقول لهم: هل تريدون الحديث أم المسائل الفقه؟ فإن قالوا الحديث دخل بمغسلته واغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا وتعمم ووضع على رأسه رداءة وتلقى له خادمته وسادة فيجلس عليها وعليه الخشوع ولا يزال يبخر بالعود حتى ينتهى من الحديث. وإن قالوا أردنا المسائل خرج إليهم. ولما سئل عن سبب ذلك قال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ولا أحدث به إلا على طهارة. وكان يكره أن

(١) سورة الحجرات آية رقم (٢).
(٢) الشفا. الجزء رقم الصفحة رقم (٣٧).

يحدث بالحديث فى الطريق أو وهو قائم أو متعجل. [1] قال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدثنا الحديث فلدغته عقرب ستة عشر لدغة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ. فلما فرغ المجلس وتفرق الناس قلت: يا أبا عبدالله لقد رأيت اليوم منك عجبا. قال: إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله ﷺ. قال ابن مهدي: مشيت يوما مع مالك إلى العقيق[2] فسألته عن حديث لرسول الله فانتهرنى وقال: كنت فى عينى أجل من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشى [3]... فهل نتأدب مع رسول الله بالتمسك بسنته ﷺ واتباع هديه وتعظيم دينه.

الأدب مع الناس:

ونتحدث الآن عن النوع الثالث من أنواع الأدب وهو الأدب مع الخلق. ويتمثل ذلك فى استشعار المسلم أن جميع المسلمين اخوانه وربطه بهم أواصر الدين والعقيدة. قال تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [4]... وهذه الأخوة ليست كلاما أجوفا ولا شعارات براقة. بل هى واجبات والتزام. وهذه الأخوة تتطلب منا أن ننظر إلى الكبير على أنه والد. وإلى المقارب لنا على أنه أخ. وإلى الأصغر منا على أنه ابن... قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعطى لعالمنا حقا». فلا ينبغى لمسلم أن يظلم أخاه أو أن يسيء إليه بأى نوع من أنواع الأذى والشر ولو حتى بنظرة عين ولا بكلمة أو أصغر. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ

---

(١) ومن أدبه أيضا مع النبى أنه كان يستحى أن يركب دابته وهو فى المدينة المنورة ويقول: كيف لمالك أن يطأ بدابته أرضا كان يمشى عليها النبى بقدمه؟

(٢) اسم مكان.

(٣) الشفا. جزء رقم (٢). صفحة رقم (٣٩).

(*) عند هذا الحد انتهى كلام فضيلة الشيخ. وحيث أنه لم يتم النوع الثالث من الأدب وهو الأدب مع الناس فإنى أتممه بتوفيق من الله.

(٤) سورة الحجرات. آية رقم (١٠).

رَّحِيمٌ}[1]. فهناك آداب يجب أن يراعيها المسلم ليكون ممن تحقق فيهم حديث رسول الله: «إن أحبكم إلي وأقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا»... فهناك أدب الولد مع والديه ويتمثل فى طاعته فيما لا يغضب الله. قال تعالى{وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً} [2].

ومن جملة الأدب مع الوالدين التواضع لهما واللين فى كلامك لهما والإنفاق عليهما وقت الحاجة.. وهكذا. قال الله تعالى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً}[3]. وهناك أدب بين الطالب وأستاذه ويتمثل فى صبره على العلم وطاعة المعلم وإجلاله. قال تعالى حاكيا على لسان موسى مع الخضر عليهما السلام:{قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً}[4]. وقديما قالوا: من علمنى حرفا صرت له عبدا..

قم للمعلم وفه التبجيلا ::: كاد المعلم أن يكون رسولا

يقول الإمام أبو حنيفة النعمان: إن لى أربعين سنة ما مددت قدمى تجاه بيت من حفظنى القرآن... كان كالصحة للبدن وكالشمس للدنيا. فما أحوج أبناؤنا اليوم إلى التحلى بهذه الآداب مع أساتذتهم حتى تنهض العملية التعليمية والتى الأصل فيها التربية قبل التعليم.. كما هو شعار الوزارة. وللإمام عبدالله بن المبارك كلمة رائعة فى موضوع الأدب قال فيها: نحن إلى قليل الأدب أحوج إلى كثير العلم... وصدق القائل: لا ينكر الفضل إلا قليل الأصل. وما أجمل ما قاله فضيلة الشيخ عبدالعاطى - رحمه الله - فى حق المعلم حين أنشد:

ربيت أشبال الكنانة ::: فاغتدوا أعلاما
كانوا لديك أمانة ::: فرعيتها إعظاما
وبنور علمك فيهم ::: اتخذوا السماء مراما

(١) سورة الحجرات آيتان رقم (١١، ١٢).
(٢) سورة لقمان آية رقم (١٥).
(٣) سورة الإسراء آيتان رقم (٢٣، ٢٤).
(٤) سورة الكهف. آية رقم (٦٩).

لـــو أنصـــفـــوك لكنـــت فى ::: كـــل الصـــدور وســـامـــا

وهناك أدب بين الرجل وزوجه ويتمثل أدبها فى طاعته فيما لا يغضب الله وصيانة ماله وعرضه والإخلاص فى تربية أولاده.. وهكذا. قال رسول الله: «لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسـجد لزوجهـا».. ويتمثل أدبه معها فى رعايته والإنفاق عليها وعلى أسرته والإحسان إليها. قال رسول الله فى حديثه الشريف: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلـى». وكان ابن عباس يقول: إنى أحب أن أتزين لزوجتى كما أحب أن تتزين لى.. ويستدل على ذلك بقوله تعالى:{وَلَهُـنَّ مِثْـلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}. وبالجملة فإن الأدب مع الخلق يتمثل فى لين الجانب. وخفض الجناح. وحسن الكلام. وتقديم الإحسان. والرأفة على الغير. ونصرة المظلوم. وإغاثة الملهوف. ومعاونة العاجز. وإرشاد الضال. والأمر بالمعروف. والنهى عن المنكر. فكلنا فى الله أخوة. قال رسول الله: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه. ولا يسلمه. من كـان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته. ومن فرج عن مسلم كربه فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلم ستره الله يوم القيامة» [1] والله تعالى أعلى وأعلم.

* * * * *

(١) حديث متفق عليه.

من أخلاق المؤمنين:

الغربــة

قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإســـلام غريبـــا وسيعود غريبا كما بدأ. فطوبى للغرباء».

الغربـــة

أيها الأخوة الأحباب. أحبائى فى الله وفى رسول الله ﷺ لا تغرنكم كثرة التابعين لرأى ما ولا قلتهم بقدر ما تعرفون الرأى نفسه. فليست الكثرة دليلا على صحة الرأى وليست القلة كذلك دليلا على خطئه. فالله عز وجل قد ذم الكثرة التى لا تلتزم بالحق. قال تعالى:{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}. وقال:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}. ومدح قلة أخرى مؤمنة فقال:{وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [1] فلا تحكم على رأى ما أو مذهب ما بكثرة أتباعه أو قلتهم بقدر حكمك على صواب هذا الرأى أو عدم صوابه. النبى ﷺ يقول فى معنى الحديث: «ما أنتم فى سواكم من الأمم إلا كالشعرة البيضاء فى الثورة الأسود».

واللقاء الآن إن شاء الله يدور حول هذا المعنى حول حديث نبوى شريف يتحدث عن الغربة وهو: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريبا كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: والذين يصلحون إذا فسد الناس»... فأنت ترى أن رسول الله ﷺ قد مدح الغرباء وأخبر عن الإسلام الذى أتانا به من ربه عز وجل بأنه بدأ غريباً وإنه سوف يعود غريباً وأن أهله يصيرون غرباء.

أما أن الإسلام بدأ غريبا فهذا أمر معلوم من دراستنا للجاهلية التى سبقت الإسلام فقد جاء الإسلام والوثنية ضاربة أطنابها فى كل مكان حتى الكعبة نفسها بيت الله كان فيها من الأصنام والأوثان الشيء الكثير. حتى البيوت نفسها لم تنج من ذلك ففى كل بيت تقريباً صورة صنم يتبرك به صاحبه ويتضرع إليه ويستشيره. فلما جاء الإسلام بالتوحيد الخالص والتخلص من هذه الأصنام المنتشرة هنا وهناك كان ولا شك غربة للإسلام وكان غربة لمن تمسك به ودعا إليه.

كان هناك تبرج الجاهلية وعرى الجاهلية حتى عند الطواف حول البيت الشريف كان هناك من يطوفون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم - الرجال نهاراً والنساء ليلاً وكان هذا أمرا مألوفاً وشائعاً عند كثيرين. فجاء الإسلام ومعه الطهارة والعفة والستر واتخاذ الزينة -{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ

(١) سورة سبأ. آية رقم (١٣).

مَسْجِدٍ} [1] فكان هذا أمراً غريباً وكان أهله كذلك غرباء.

كان هناك الربا والزنى والحمية الجاهلية وغير ذلك. وجاء الإسلام وشجب ذلك ودعا إلى الحب والتعاون على الخير وغير ذلك من المبادىء الكريمة التى تحفظ للإنسان كرامته. فكان الإسلام فى هذه البيئة غريبا وكان المسلمون فيها أيضا غرباء وتحمل المسلمون الغرباء فى أوطانهم وهم بين أهليهم وذويهم كل التعب. وكل المشقة والاضطهاد وهؤلاء طوبى لهم وحسن مئاب.

ولعل ما يلفت النظر أن الرسول الكريم الملهم من ربه صاحب القلب الذى يرى بنور الله عز وجل وصف الإسلام بأنه سيعود غريبا - كما بدأ وها أنتم أولاء ترون صدق رسول الله ﷺ فى وصف الإسلام بالغربة. ووصف أهله بأنهم غرباء قد تحقق كما قال. ادخل أى مقهى وتأمل ما يجرى فيه ماذا ترى؟ ترى أناسا لا تستطيع أن تحكم عليهم بأنهم مسلمون. قد تسمع القرآن الكريم يتلى من الإذاعة أو التليفزيون فهل فى هؤلاء من يستمع إلى القرآن وينصت إليه كما قال ربنا:{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[2] وقد تكون الآيات التى تقرأ تذكر بالنار وحرها وشدتها وهم عن كل ذلك غافلون!! فأين الإسلام من هؤلاء؟! ألا يعد الإسلام غريبا عنهم.. ثم افترض أن إنسانا وقف فى هذا المقهى وقال يا قوم: كفوا عن لعب الحرام الذى تمارسونه. ونظفوا أيديكم منه وأنصتوا إلى القرآن الذى يتلى عليكم وأقلعوا عن التدخين احتراما لما تسمعون. لو فرضنا أن إنسانا قال ذلك فى هذا الجمع فماذا يمكن أن يقال عنه؟ سوف يقال عنه أنه متخلف وإنه رجعى وإنه متعصب وإنه إرهابى! أيمكن أن يكون هذا الرجل من هؤلاء الناس؟ ألا يكون غريبا عنهم وطوبى له كما يقول الرسول ﷺ ؟

انظر إلى المال العام وهو ملك للمسلمين جميعا وليس ملكاً لرئيس المصلحة ولا للوزير ولا لغيره. إنك تجد التزوير والاحتيال والتماس الثغرات لأكله ونهبه - وما عشرات القضايا التى عرضت وتعرض أمام المحاكم إلا أمثلة صارخة لذلك - ترى لو أن إنسانا فى مصلحة ما فيها تليفون ومنع استخدام هذا التليفون من الذين يستخدمونه فى أغراضهم الشخصية. فهذا خاطب يتحدث مع مخطوبته أين يقضيان سهرة الليلة وتطول

(١) سورة الأعراف. آية رقم (٣١).
(٢) سورة الأعراف. آية رقم (٢ - ٤).

المكالمة وتمتد. وهذا عاشق يتحدث مع معشوقته يبثها هواه ونجواه. وهذا زوج يتحدث مع امرأته عن الغداء والأولاد.. وغير ذلك كثير وكثير جدا مما تعلمون. والعجب أن أغلب المكالمات تبدأ من المصلحة أما تليفون البيت فهو أخرس إلا عندما يطلب!! لو افترضنا أن رئيس هذه المصلحة منع استخدام هذا التليفون من هذا الاستخدام الأحمق الأهوج فبماذا يصفه زملاؤه؟ سوف يسمع ما لا يحب فهو يتنطع وهو إنسان لا يراعى الجانب الإنسانى لمرأوسيه ولا يعمل على راحتهم! أيمكن أن يكون مثل هذا الشخص فى هذا الموقع إلا غريبا وطوبى للغرباء كما ذكر رسول الله ﷺ [1].

وانزل إلى السوق وتأمل حال البائعين والمشترين وكل منهم يريد أن يخدع صاحبه ويأخذ ما لا حق له فيه. وتسمع الأيمان المغلظة الكاذبة وربما سمعت أيمان الطلاق من المتزوجين وغير المتزوجين. لو أن تاجراً صالحاً وقف فى هذا السوق فلم يثن على سلعته وأظهر ما فيها من عيب لمن يشتريها - كما هو شأن التجار الصالحين - أيمكن أن يقال عن هذا التاجر إنه من جملة التجار الآخرين؟ إنه غريب وطوبى للغرباء كما ذكر رسول الله ﷺ. هذه بعض أمثلة تثبت ما قاله الرسول الملهم الموحى إليه من ربه. والذى لا ينطق عن الهوى من منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان.

ونعود إلى الحديث الذى معنا والروايات التى جاء بها لذكر صفات الغرباء لنحاول أن نتصف بها لنكون أهلا لبشارة الرسول لنا بقوله ﷺ: «فطوبى للغرباء» فمن ذلك:

١- روى الإمام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «طوبى للغرباء. قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: الذين يزيدون إذا نقص الناس».

٢- وفى حديث آخر: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتى ويعلمونها الناس».

٣- روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إن أحب شيء إلى الله الغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسي ابن مريم عليه السلام يوم القيامة».

٤- روى نافع عن مالك قال: دخل عمر بن الخطاب فوجد معاذ بن جبل جالسا إلى

(١) أكد الرسول على احترام المال العام وحرمة نهبه قائلا: (إن أناسا يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة). رواه البخارى ومسلم.

بيت النبى + وهو يبكى. فقال لـه: ما يبكيك يا أبا عبدالرحمن.. هلك أخوك؟ قال: لا ولكن حديث حدثنيه حبيبى ﷺ وأنا فى هذا المسجد. فقال عمر: ما هو؟ قال: «إن الله يحب الأخفياء الأصفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضـــروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة».

هذه بعض الروايات التى تصف الغرباء وهم ليسوا بالضرورة أن يكونوا بعيدين عن أوطانهم ولا عن أهليهم وذويهم. ولكنها غربة التفرد عن الكثرة المخالفة. وعلى ذلك فالمسلمون غرباء عن أكثر أهل الأرض. والمؤمنون من هؤلاء المسلمون غرباء، والعلماء العاملون غرباء بين المؤمنين، والمخلصون غرباء بين العالمين: «الـنـاس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصـــون ، والمخلصون على خطر عظيم». وهؤلاء غرباء من الناس لكنهم قريبون من الله وهم أهله حقا. وهم بهذا القرب من الله لا يحسون بوحشة فالله أنيسهم. ولا يشكون من وحدة فالله معهم. ولكن الغرباء حقا عن الله هم الغرباء عن الله وعن رسول الله وعن دين الله.

يروى أن موسى عليه السلام لما خرج من مصر هاربا من قوم فرعون وانتهى إلى أرض مدين فقال: يا رب.. وحيد مريض غريب. فقيل لـه: يا موسى.. الوحيد من ليس لـه مثلى أنيس. والمريض من ليس لـه مثلى طبيب. والغريب من ليس لـه بينى وبينه معاملة... هذه هى الغربة الحقيقية فالغريب حقا هو البعيد عن دين الله فلا يعمل بمقتضاه ولا يلتزم بآدابه وسلوكه. وإنما يشرع لنفسه ما لم يأذن به الله ورسوله... والغريب كذلك هو الغريب عن ربه الذى لا يراقبه ولا يقف عند ما شرع ولا يخشع قلبه عند ذكره والغريب أيضا الغريب عن رسول الله ﷺ لا هو متمسك بسنته ولا متتبع لطريقته هؤلاء هم الغرباء حقا يوم القيامة.

ويوم القيامة تنطلق كل أمة مع من كانت تعبد من دون الله إلى النار وتبقى أمة التوحيد الذين كانوا غرباء فى الدنيا واقفين فى أماكنهم. فيقال لهم: ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس فى الدنيا ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربا كنا نعبده.

صفات الغرباء

ونلخص صفات الغرباء كما جاءت فى هذه الروايات التى سردناها عليكم. وهى: الذين يصلحون إذا فسد الناس كما فى الرواية الأولى فهم لا ينحرفون مع من انحرف ولا ينجرفون مع من انجرف فهم يعضون على سنة رسول الله ﷺ بالنواجز. كما حذرهم الرسول من اتباع المبتدعين: «**إياكم ومحدثات الأمور. فإن كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة. وكل ضلالة فى النار**» [1]. وقوله ﷺ: «**لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا. وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم**» - إنهم يحيون بالله ومع الله ولله، ولا يضرهم من خالفهم هذه هى الصفة الأولى الذين يزيدون إذا نقص الناس ولعل الزيادة والنقص هنا ليست فى العدد و إنما هى زيادة فى الطاعات والعمل الصالح أو النقص فيها. فلا يعنى هؤلاء الغرباء ما يفعله الناس بقدر ما يعنيهم أن يطيعوا ربهم وأن يتقربوا إليه بكل عمل صالح. " الذين يفرون بدينهم إلى ربهم ". كما قال الله{**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**} [2]. وإذا فر الناس من الشيطان وارتموا فى أحضان الله فإنهم يفرون إلى جنات الفردوس. إنهم يفرون من المعصية إلى الطاعة ومن الجهل إلى العلم... وبالجملة فإنهم يفرون مما سوى الله إلى الله. ومن كل مايعرضهم لعذاب الله إلى ما يوصلهم إلى طاعته. إنه لايفرح إلا بما يصل إليه من الله ولا يأسى على شيء فاته سوى الله. فلا يستعن إلا بالله ولا يفتقر إلا إلى الله ولا يفرح إلا بموافقته لله ولا يحزن إلا على مافاته من الله ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله. فكله لله وكله بالله وكله مع الله وسيره إلى الله [3].

" الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لن يعرفوا ". وفى هؤلاء ورد حديث أبى أمامة عن رسول الله ﷺ عن رب العزة ما معناه: «**إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاته أحسن عبادة ربه ، وكان رزقه كفافا وكان مع ذلك غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع. وصبر على ذلك حتى لقي الله ثم حلت ميتته وقل تراؤه وقلت بواكيه**».

ومن هؤلاء أيضا ما ذكره أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**رب أغبر ذى طمرين لا**

---

(١) حديث شريف رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وهو من رواية العرياض بن سارية.
(٢) سورة الذاريات. آية رقم (٥٠).
(٣) مدارج السالكين جزء رقم (٢) صفحة رقم (٦٠٢).

يؤبه لـــه لو أقسم على الله لأبره». ومن هؤلاء أيضا ما ورد عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن ملوك الجنة قالوا: بلى يا رسول الله. قال: كـــل ضعيف أغبر ذى طمرين لا يؤبه لـــه لو أقسم على الله لأبره». وقال الحسن: المؤمن فى الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس فى عزها، للناس حال ولـه حال. الناس منه فى راحة وهو من نفسه فى تعب [1] والغربة لاتعنى الانفصال عن الناس وعدم إسداء النصح أو الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر إلا فى حدود الحديث الشريف: «مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا. وهوى متبعـــا. ودنيـــا مؤثرة. وإعجاب كل ذى رأى برأيه. ورأيت أمرا لا يد لك به فعليك بخاصة نفســـك وإياك وعوامهم. فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيها كالقابض على الجمر» [2]. ولهذا جعل للمسلم الصادق فى هذا الوقت إذا تمسك بدينه أجر خمسين من الصحابة. ففى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَـــكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعا. وهوى متبعا. ودنيا مؤثرة. وإعجاب كل ذى رأى برأيه. فعليـــك بخاصة نفسك ودع عنك العوام. فإن وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبضة على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلا لا يعملون مثل عمله». قلت: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: " أجر خمسين منكم " [3]... ولا عجب فى ذلك. فهذا الرجل الغريب عن مجتمعه لا يجد منهم معينا ولا مساعدا بل قد يجد اللوم والتثبيط. فهو عالم بين جهال. وآمر بمعروف بين آمرين بمنكر. وملتزم بسنة بين مبتدعين. داع إلى الله بين دعاة الهوى والغرض... وهذه هى الغربة المحمودة كما ذكر النبى ﷺ. وهناك غربة مذمومة عكس الغربة المحمودة. وهى غربة أهل الباطل بين أهل الحق. فهم وإن كانوا كثيرين ويعيشون بين أشياعهم فهم غرباء. قد يكونون معروفين عند أهل الأرض يشرق ذكرهم ويغرب وتقام لهم الاحتفالات لتكريمهم ويحصلون على أعلى الأوسمة وأغلى الجوائز. ولكنهم فى الوقت نفسه مجهولون بين أهل السماء. وإذا عرفوا يوم القيامة فكما قال ربنا:{يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ}. فهم يحشرون زرقا.

(١) مدارج السالكين جزء رقم (٢) صفحة رقم (٦٠٢).
(٢) الحديث رواه أبو داود.
(٣) الحديث رواه ابن ماجة والترمذى وقال حسن غريب.

وسودا كما قال الله تعالى:{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} [١]. وكما قال تعالى{يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ} [٢]. وقد يسألنى سائل عن الغربة بمعنى البعد عن الأهل والوطن؟ وأقول: إذا كانت هذه الغربة فى طاعة الله فهو كالمجاهد والحاج والمعتمر والذى يضرب فى الأرض يبتغى فضل الله فهو مثاب. وقد وردت فى ذلك أحاديث نذكر منها

عن عبدالله بن عمرو قال: «توفى رجل بالمدينة – ممن ولد بالمدينة – فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال: ليته مات فى غير مولده. فقال رجل: ولم يا رسول الله؟ قال: إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة». [٣]

وقال: وقف رسول الله ﷺ على قبر رجل بالمدينة فقال: «يا له لو مات غريبا. فقيل: وما للغريب يموت بغير أرضه؟ قال: ما من غريب يموت بغير أرضه إلا قيس له من تربته إلى مولده فى الجنة» [٤] أما الذين يغتربون لإشباع لذة وإطفاء نزوة فليس

---

(١) سورة طه. الآية رقم (١٠٢).

(٢) سورة آل عمران. الآية رقم (١٠٦).

(٣) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه.

(٤) وفى ثواب الغرباء فى صدر الإسلام قوله تعالى فى سورة الحديد: (لايستوى منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقو من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير)... وهذا حق. ذلك أن الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح كانوا غرباء - وطوبى للغرباء - وكان الإسلام ما يزال غريبا. أما بعد الفتح فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا فزالت الغربة. روى أنس أنه كان بين خال بن الوليد وعبدالرحمن بن عوف كلام. فقال خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها. فبلغنا أن ذلك ذكر للنبى ﷺ فقال: (دعوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم). وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى خزيمة الذين قالوا: صبأنا صبأنا. وفهم خالد أنهم كفروا فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم. وخالفوا عبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن عمر فكانت المخاصمة. وفى الحديث الصحيح: (لاتسبوا أصحابى. فوالذى نفسى بيده لو انفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولانصفيه). وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: (يوشك أن يأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم. فقلنا: من هم يا رسول الله.. أقريش؟ قال: لا ولكن أهل اليمين هم أرق أفئدة وألين قلوبا. فقلنا ك أهم خيرنا يا رسول الله؟ قال: لو كان لأحدهم جبل فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصفيه). ثم ختمت الآية بقوله: (والله عليم خبير). فبعلمه وخبرته تعالى فاوت بين من أنفق قبل الفتح ومن أنفق بعده - ابن كثير / سورة الحديد... وقصة حاطب بن أبى بلتعة حينما كاتب قريشا فى فتح مكة وأراد عمر أن يقتله فقال النبى ﷺ: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم). وورد فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: (أى المؤمنين أعجب إليكم؟ قالوا: الملائكة. قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم!! قالوا: الأنبياء. قال: وما لهم لا يؤمنوا الوحى ينزل عليهم!!. قالوا: فنحن. قال وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم!! ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها - الظلال/ سورة الحديد.

لهم فى هذا الخير نصيب. وإنما جزاؤهم جزاء العصاة المذنبين لهم فى كل خطوة فى سبيل هذه المعصية سيئة توقر ظهورهم وتثقل كافة سيئاتهم. فأصبحوا وفجاج الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم. وإذا توسعنا فى مفهوم الغربة عن الوطن فإننا نعد كل هذا العلم غريبا. ذلك أن الوطن الأصلى الذى خلقنا له هو الدار الآخرة. فالدنيا دار ممر وليست دار مقر وهى مزرعة للآخرة. وهى قنطرة والعاقل من يعبرها سليما ولا يشغل نفسه بالبقاء فيها أكثر مما قدر له. وهذا العالم كله مسافر إلى ربه وأيامه ولياليه هى مراحل عمره. فكل يوم يقربه حتما إلى مقره. ويرحم الله ابن القيم حين قال:

وحى على جنات عدن فإنها ::: منازلك الأولى وفيها المخيم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ::: وشطط به أوطانه ليس ينعم
فمن أجل ذا لا ينعم ساعة ::: من العمر إلا بعد ما يتألم

فنحن جميعا على جناح سفر وكل مسافر سوف يعود يوما ما قرب أو بعد. ولقد صدق من قال:

وما هذه الأيام إلا مراحل ::: يحس بها داع إلى الموت قاصد
وأعجب شيء لو تأملت أنها ::: منازل تطوى والمسافر قاعد

فلله الأمر من قبل ومن بعد

* * * * *

من أخلاق المؤمنين:

الاعتصام بالله

{وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}

obeikandl.com

الاعتصـــام بالله

الاعتصام بالله هو خلق قرآنى كريم تردد فى كلام الله كما تردد فى أحاديث الرسول ﷺ... والاعتصام مأخوذ من العصمة وهى الحفظ والمنع. ومن ذلك قولـه تعالى لرسول الله ﷺ:{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}[1] أى يحفظك ويمنعك.: «وقد كان رســول الله ﷺ نائما تحت ظل شجرة وجاء رجل وأيقظه وقال: من يمنعك منى. فقال الــنبى ﷺ: الله. فارتعد الرجل وسقط السيف من يده[2] - فالعاصم هنا هو الله الذى حفظ نبيه من شر هذا الرجل... ومنه قول ابن نوح حينما ناداه نوح عليه السلام:{قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَــلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ} " أى يحفظنى ويمنعنى. فقال سيدنا نوح عليه السلام:{لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [3] أى لامانع ولا حافظ.

وهذا الخلق الكريم سبب للحفظ والحماية لمن اتصف به فى الدنيا والآخرة. قال تعالى{وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [4]. وقال:{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْــلِ اللَّــهِ جَمِيعــاً وَلاَ تَفَرَّقُــوا}[5] ولاشك أن التمسك بالدين هو سبيل العصمة والحفظ وللمفسرين فى كلمة حبل(الله) التى أمرنا أن نعتصم به آراء تختلف فى ألفاظها ولكنها تتفق فى مضمونها والهدف منها: قال ابن عباس رضى الله عنه: تمسكوا بدين الله. قال ابن مسعود رضى الله عنه: هو الجماعة. وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذى أمر به. وأن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة وقال بعضهم: إنه الدين. وقال البعض الآخر إنه القرآن وقد ورد فى حديث رسول الله ﷺ صراحة أن حبل الله هو القرآن الكريم - روى ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن هــو حبل الله. وهو النور المبين. والشفاء النافع. وعصمة من تمسك. ونجاة من تبعه».

وعن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «هو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذى لا تزيغ به الأهواء. ولا تختلف به الألسنة. ولا يخلق على كثرة الرد. ولا يشبع منه العلماء».

---

(١) سورة المائدة. الآية رقم (٦٧).
(٢) حديث صحيح.
(٣) سورة هود. الآيتان رقم (٤٢، ٤٣).
(٤) سورة آل عمران. الآية رقم (١٠١).
(٥) سورة آل عمران. الآية رقم (٣٠١).

والاعتصام بحبل الله تعالى سبب لرضا الله عز وجل عن عبده. وفى الموطأ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم. ويسخط لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال**» [١].

والاعتصام بالقرآن الكريم يعنى التمسك بكل ما جاء فيه دون زيادة عليه ودون نقص منه. وألا نستبدل بأحكامه وشرائعه أحكاما وشرائع أخرى. وإلا كنا من الذين قال الله عز وجل فيهم:{أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} [٢] .

وما هانت أمتنا وذلت إلا بعد أن هان عليها كلام ربها وأدارت رأسها هنا أو هناك. ففقدت بذلك خير معتصم يمكن أن يعتصم -{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[٣] إنه يهدى للحياة الفاضلة فى الدنيا والآخرة. ففى الدنيا يضمن لهم السيادة والشرف والرفعة. وفى الآخرة يضمن لهم الخلود الأبدى فى جنة عرضها السموات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن أجدادنا لم يملكوا الدنيا لأنهم أكثر عددا. ففى الغزوات كان المشركون أضعاف أضعاف المسلمين ومع ذلك انتصرت القلة المؤمن المعتصمة بكتاب الله سبحانه وتعالى على الكثرة الكثيرة التى لا تؤمن بهذا الكتاب الذى أكرمنا الله عز وجل به... ولم يكن أجدادنا أكثر عدة. فقد كان أعداؤهم أضعاف أضعاف ما فى أيديهم. غير أن إيمانهم بربهم واعتصامهم بحبله جعلهم إن قصرت سيوفهم أطالوها بأيديهم فلم تخطىء رقاب أعدائهم فتم لهم الفوز ولم يكن أجدادنا أيضا أكثر أموالا ونفقت فى الحرب. ولكن الله أغناهم عن المتاع الزائل فكان إيمانهم فى قلوبهم وتمسكهم بسنة نبيه ﷺ نعم الغنى. ونظرة إلى حال المسلمين اليوم وقد ابتعدوا عن دينهم وقرآنهم تريك كيف أنهم لم ينقصوا من مال ولم ينقصهم العدد والعتاد أمام أعدائهم. ومع ذلك فالهزائم تتوالى عليهم وتتكالب عليهم القوة الخارجية كما تتكالب الأكلة إلى قصعتها ونحن كثير ولكن غثاء كغثاء السيل لا قوام له ولا تماسك فيه. فقد أصبحنا نحب الدنيا ونكره الموت - احرص على الدنيا توهب لك الحياة.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سورة البقرة. الأية رقم (٦١).
(٣) سورة الإسراء. الأية رقم (٩).

أنواع الاعتصام

والاعتصام نوعان:

١ - اعتصام بالله. ٢ - اعتصام بحبل الله.

وقد اجتمعا معا فى قوله تعالى:{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا}.[١]

والاعتصام بالله يعنى الالتجاء إليه والحماية به. فلا سؤال إلا منه. ولا اعتماد إلا عليه. ولا توجه إلا له... وهذا يعطى العقيدة صفاء ونقاء. وإذا تحقق ذلك من العبد فإن الله عاصم من اعتصم به{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}[٢] فيقيه شر الشبهات والشهوات. ويقيه شر عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه وبذلك يدفع عنه (قدره بقدره وإرادته بإرادته ويعيذه به منه)[٣]. وما أكثر أعداء الإنسان الذين يبغوها شرا والويل له إن اتبعهم...

إنى بليت بأربع تـرمينى ::: بالنبل قد نصبت على شراكا
إبليس والدنيا ونفسى والهوى ::: من أرجوا بينهم فكاكا
يارب ساعدنى بفضلك إننى ::: أصبحت لا أرجو لهن سواكا

أما إبليس اللعين فقد أقسم أمام ربه وأمام الملأ الأعلى من المقربين وأمام آدم نفسه فقال:{فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[٤]. والمخلصون هم المعتصمون بالله اللائذون بحماه. وهيهات هيهات أن يغويهم شيطان أو يتمكن منهم الشيطان وساعد فى التبرير لارتكاب الجريمة. ولكن يوسف المعتصم بالله لم تلن له قناه ولم يمل قط لارتكاب الفاحشة وهذا شأن المعتصم بالله. وكما حكى القرآن الكريم قالت امرأة العزيز أمام النسوة:{وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ

(١) سورة آل عمران. الآيات أرقام (١٠١، ١٠٢، ١٠٣).
(٢) سورة الحج. الآية رقم (٣٨).
(٣) مدارج السالكين. الجزء رقم (١). صفحة رقم (٤٩٧).
(٤) سورة ص. الآيتان رقم (٨٢، ٨٣).

لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْــهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْــهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}[1]. فيوسف اعتصم بالله من الوقوع فى المعصية فعصمه الله وصرف عنه كيد النسوة وكذلك الدنيا بما فيها من زينة ومتاع وشهوات قد تغرى الإنسان بالارتماء فى أحضانها. ولكن المعتصم بالله تكون الدنيا فى خدمته وكيف لا تكون والأمر الإلهى جاء لها فى الحديث القدسى - الذى معناه: «يا دنيا.. من خــدمنى فاخدميه. ومن خدمك فاستخدميه».

فالذى يصبح والدنيا أكبر همه شتت الله شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله لــه[2] لقد وقع ثعلبة بن حاطب فى طاحونة حب الدنيا والمال حتى ابتعد عن الصلاة مع رسول الله ﷺ فى المسجد ومنع الزكاة. ولو أنه اعتصم بالله ووفى بعهده معه لنجا -{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْــلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُــوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[3].

لذلك كان الإمام على رضى الله عنه يقبض على لحيته ويقول: يا دنيا غرى غيرى.. إلي تشوقت أم إلي تعرضت.. هيهات هيهات لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها. ونحب أن ننبه إلى أنه ليس معنى ذلك أن المؤمن يولى ظهره إلى الدنيا فيقعد كسلان فى مسجد أو قابعا فى محراب. ولكن الذى نقصده أن يعتصم المؤمن بربه فلا توقعه الدنيا فى حبائلها وشراكها فتستولى على قلبه. فالدنيا فى يد المؤمن وليست فى قلبه. والنفس أيضا من الأعداء فمن أطاع نفسه وأعطاها كل ما تشتهى ولم يوقفها عند حدود الله ولم يعتصم من شرها فإن النتيجة - والعياذ بالله - سيئة{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّــارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي}[4]... وكذلك الهوى الذى يزين المعصية ويحببها حتى يرتكبها وما أقصى تسلط الهوى على الذى لا يعتصم بربه قال تعالى:{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَــهُ

(١) سورة يوسف. الآية رقم (٣٢، ٣٣، ٣٤).

(٢) أكد رسول الله هذا المعنى فى حديثه الشريف الذى رواه الطبرانى وابن ماجة ورواته ثقات أن رسول الله قال: (من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب لــه. ومن كانت الآخرة نيته جمع الله لــه أمره وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة.

(٣) سورة الأنعام. الآيتان رقم (٧٦، ٧٧).

(٤) سورة يوسف. الآية رقم (٥٣).

هَوَاهُ}[1]. إلى هذا الحد قد يعبد الإنسان هواه وقد يتسلط الهوى عليه؟!! والمعصوم من عصم الله.

والنوع الثانى: الاعتصام بحبل الله تعالى هو التمسك بكل ما جاء فى القرآن الكريم اعتقاداً وعملاً وسلوكاً فيعرض المعتصم نفسه دائما على كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ فلا مجال لزيادة ولا نقص. فقد أكمل الله الدين وأتم النعمة{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً} [2] فحركات المسلم وسكناته لله{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [3] - فالمسلم بذلك يصل إلى درجة الاحتساب المشار إليها فى مثل قول النبى ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له. ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له» [4]... ولقد أحسن من عرف التقوى بقوله: هى العمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله. وترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

وخلق الاعتصام يعنى التمسك بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تمسكاً يدل على التسليم المطلق والرضا التام بكل ما جاء فيهما. ففى مجال العقيدة مثلا يكون المعتصم بالله ثابت القلب مطمئن الفؤاد إلى الله هو الله الواحد الأحد لا شريك له. وهو المتصف بكل كمال. والمنزه عن كل نقص. فلا يحمد إلا هو ولا يستعين إلا به... وفى الحديث القدسى: «إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى، خيرى إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد».

وفى حديث آخر: «ابن آدم.. ما أنصفتنى. خيرى إليك نازل وشرك إلي صاعد. أتحبب إليك بالنعم وأنا عنك غنى وتتبغض إلي بالمعاصى وأنت فقير إلي. ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بكل قبيح». وفى حديث ثالث: «يابن آدم.. ما من يوم جديد إلا يأتيك من عندى رزق جديد وتأتى عنك الملائكة بعمل قبيح. تأكل رزقى وتعصينى. وتدعونى أستجب لك وتسألنى فأعطيك. وأنا أدعوك إلى جنتى فتأبى. وما هذا من الإنصاف». وهذه العقيدة يجب ألا يتطرق إليها الشك -{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

(١) سورة الجاثية. الآية رقم (٢٣).
(٢) سورة المائدة. الآية رقم (٣).
(٣) سورة الأنعام. الآيتان رقم (١٦١، ١٦٢).
(٤) رواه البخارى.

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} - ولا تكون العبادة حتى على سبيل الاحتياط بمعنى أن الإنسان قد يقول مثلا: العذاب فى الآخرة نار وقودها الناس والحجارة. ومن ذا الذى يقدر على ذلك؟ فأنا أتمسك بالعقيدة والأخلاق لأنجوا من هذه النار إذا كان ذلك حقا. وإذا لم يكن كذلك فما خسرت شيئا!! وذلك كما قال القائل:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ::: لا تبعث الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ::: وإن صح قولى فالبوار عليكما

فهو يريد أن يقول أن الملاحدة ينكرون البعث. فإن صح ما قالوه فلم يخسر شيئا أما إذا كان هناك بعث فإن الخسارة الحقيقية عليهم فإن كان هذا هدف الشاعر فعبدالله كما نقول من باب الاحتياط فعقيدته غير صحيحة. ولا يصح للمسلم أن يعبد ربه من باب الاحتياط بل يعبده على سبيل الحق واليقين والاعتقاد الجازم -{كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[1]. ولنرجع إلى القرآن الكريم لنرى أن الله قد ذكر ثواب المعتصمين فى قوله تعالى:{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً}[2].

فأنت ترى أن الله قد توعد المنافقين بأنهم فى الدرك الأسفل من النار. وليس هناك من ينصرهم ولا من يشفع لهم أما إن تاب بعضهم عن النفاق وأصلح عمله واعتصم بربه وبحبله. فقد خلعوا أنفسهم من صفات المنافقين وعادوا مرة أخرى رحاب الإيمان وجماعة المؤمنين وسوف يؤتيهم الله أجرا عظيما.

وهل هناك أعلى من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين - وفيها يسلم الله عليهم ويحل عليهم رضوانه ويرفع عنهم الحجاب فيرونه. ألا يستحق هذا الثواب الجليل أن يخلع الإنسان نفسه من ربقة النفاق وقيوده؟ وفى سورة النساء نقرأ قول الله تعالى{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}[1] فأنت ترى أن الله قد وعد المؤمنين المعتصمين بالرحمة

(١) سورة التكاثر.
(٢) سورة النساء. الآيتان رقم (١٤٥، ١٤٦).
(١) سورة النساء. الآية رقم (١٧٥).

والفضل والهداية إلى الصراط المستقيم وقد تفسر الرحمة بالجنة كما فى قوله تعالى{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ}[1] أى جنته. والفضل هو الزيادة التى يمن الله بها عليهم فى دار رحمته وكما قال تعالى:{لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [2]. والصراط المستقيم هو التوفيق فى الاستمرار على الإسلام. ونحن نردد فى صلواتنا كل يوم:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[3]. فالمعتصمون بالله موفقون مهديون إلى التمسك بالإسلام. وفى سورة الحج نقرأ قوله تعالى:{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [4]

نسأل الله أن يرزقنا الاعتصام به والعمل له والاعتماد عليه إنه على ما يشاء قدير.

* * * * *

(١) سورة آل عمران. الآية رقم (٧١).
(٢) سورة ق. الآية رقم (٣٥).
(٣) سورة الفاتحة. الآية رقم (٦).
(٤) سورة الحج. الآية الأخيرة.

من أخلاق المؤمنين:

السكينة

قال ابن مسعود: "السكينة مغنم وتركها مغرم"

obeikandl.com

السكينـــة

السكينة من نعم الله على عباده السكينة النفسية التى ينعم بها على المؤمنين الذين تمتليء قلوبهم بالإيمان الصادق{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (١). وقال عز من قال:{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِـكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} (٢).

وقد ورد لفظ السكينة فى القرآن الكريم ست مرات: مرة فى سورة البقرة(٣). ومرتان فى سورة التوبة (٤). وثلاث مرات فى سورة الفتح... (٥) وكلمة السكينة مأخوذة من السكون وهو ضد الحركة. فسكينة القلب تعنى هدوءه وبعده عن القلق والحيرة. والإنسان فى هذه الحياة يتعرض لمواقف يضطرب منها قلبه ويتزلزل فؤاده. فى هذا الوقت ينزل الله سكينته على من يشاء من عباده. فتطمئن القلوب بعد قلق وتسكن بعد اضطراب. ويشعر المرء بعدها بالأمن يملأ حناياه ويبدد ظلام الشك فتستنير نفسه ويعرف طريقه. وفى حياة الرسول ﷺ مواقف تعرض فيها لمواقف كثيرة إلا أن الله أنزل سكينته عليه وعلى من معه فاطمئنت القلوب وسكنت. ومن ذلك:

١- ليلة الهجرة... ولك أن تتخيل فقط ما حدث لتعلم أن مكة كلها ائتمرت برسول الله ﷺ واختارت من كل قبيلة فتى شاباً جلداً وأعطوه سكيناً صارماً ثم أمروا هؤلاء الشبان إن هم رأوه ﷺ أن يضربوه ضربة رجلٍ واحدٍ ليتفرق دمه فى القبائل. إلا أن الله أعمى أبصارهم وبصائرهم وخرج رسول الله ﷺ دون أن يشعروا به. واختبأ هو وأبو بكر - رضى الله عنه - فى غار ثور. وجاء قريش بقصاص الأثر وتتبعوا الآثار حتى وقفوا عند فم الغار. وتخيل أنت لو أن المشركين ظفروا برسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه ماذا يكون مصيرهما؟ بل ماذا يكون مصير الإسلام والمسلمين؟ وتجول هذه المعانى فى رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول: يا رسول الله.. لو نظر أحدهم تحـــــــــــت قدميـــــــــــه لرآنـــــــــــا.

---

(١) سورة الرعد. الآية رقم (٢٨).
(٢) سورة الأنعام. الآية رقم (٨٢).
(٣) آية البقرة الوارد فيها لفظ السكينة هى الآية رقم (٢٤٨).
(٤) سورة التوبة. الآيتان رقم (٢٦، ٤٠).
(٥) سورة الفتح. الآيات أرقام (٤، ١٨، ٢٦).

ولم يضطرب رسول الله ﷺ فالله سبحانه وتعالى أنزل سكينته عليه فأنطقته هذه السكينة الربانية بقوله ﷺ ما معناه: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما.. لاتخف إن الله معنا». قال تعالى:{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا}[1]. ولاحظ كلمة (فأنزل) إنها تدل على أن السكينة من عند الله فهي إذا هبة ربانية وعطاء إلهي ينزله الله على قلب من يشاء من عباده فيسكن ويطمئن.

٢- فى غزوة حنين وقد وقعت هذه الغزوة فى شوال سنة ثمان بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً. وساء ذلك قبيلة هوازن فجمعوا جموعهم لقتال رسول الله ﷺ - وكان مع النبى ﷺ اثنا عشر ألفاً. عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار - وهم الذين كانوا معه فى فتح مكة - وألفان من الذين أسلموا حديثاً. وهذا العدد الكثير أصاب البعض بالغرور حتى قال قائلهم: لن نهزم اليوم من قلة... وسار هذا الجيش ومر بوادى حنين - وهو طريق بين الجبلين - وكان المشركون قد احتلوا أعالى الجبال.

ومع أول ضوء من النهار والمسلمون غير مستعدين للقتال انهمرت السهام من المشركين - وهم متحصنون بالجبال - على المسلمين فثارت الخيول وجفلت بسرعة وتبعتها الإبل. وكانت الخيول والإبل تطأ المسلمين ففر الذين أسلموا حديثا مما ألقى الرعب فى قلوب المسلمين ففروا لا يلوون على شيء.

غير أن رسول الله ﷺ أنزل الله سكينته عليه وعلى الذين ثبتوا معه - وكانوا مائة أو ثمانين رجلا.. وصار ﷺ ينادى بأعلى صوته: (أن النبى لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب) وفى ذلك خطورة عليه ﷺ فقد تصوب سهام المشركين نحوه - وكان ﷺ يركب بغلة وليس حصانا - فكان يرقد بالبغلة نحو المشركين. وأمر العباس أن ينادى فى المسلمين حتى ثابوا إليه.

ونظم النبى ﷺ صفوفهم وكروا على أعدائهم ونصرهم الله تعالى. واسمع إلى قول الله تعالى حين يقول:{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى

(١) سورة التوبة. الآية رقم (٤٠).

الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا} [1]. وتأمل أيضا قول الله:{ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ} لتدرك ما سبق أن قررناه من أن السكينة نعمة من الله ينزلها على قلب من يشاء. وقد أنزلها يوم حنين على قلب الرسول ﷺ وقلب المؤمنين الذين كانوا معه.

٣- من المواقف العصيبة أيضا يوم الحديبية... حيث خرج الرسول ﷺ لأداء العمرة وخرج المسلمون معه لنفس الغرض. ولم يحملوا معهم أدوات قتال وإنما ساقوا الهدى. وأبت قريش إلا أن تصدهم وخرجت بقضها وقضيضها. ورغب النبى الرحيم بأمته أن يحقن الدماء وأرسل عثمان بن عفان يخبر قريشا أنه ما جاء لقتالهم وإنما جاء لأداء العمرة. غير أنهم حبسوا عثمان وأشيع بين المسلمين أن عثمان قد قتل.

فى هذا الجو المشحون المتوتر الذى ينذر بصادم وشيك بين زوار البيت الحرام وبين المشركين الذين يأخذون أهبتهم واستعدادهم للقتال يبايع النبى ﷺ أصحابه بيعة الرضوان تحت الشجرة. ويجعل يدا كريمة عنه والأخرى كريمة عن عثمان وينزل الله سكينته على هؤلاء فقال تعالى:{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} [2].

ويتم صلح الحديبية بعد أخذ ورد من المسلمين لأن شروط الصلح كانت فى الظاهر مجحفة. فقد أبى المشركون أن يكتبوا (الرحمن الرحيم) وأبوا كذلك أن يصفوا رسول الله بأنه رسول الله. وأنهم لا يردون من جاءهم من المسلمين لكن المسلمون يردونه. فأنزل الله سكينته عليهم فاستغفروا ولم يشذوا عما فعله النبى ﷺ ولاحظ أيضا الفعل (أنزل) الذى يدل على أن السكينة عطاء إلهى ينزله على من يشاء من عباده[3].

---

(١) سورة التوبة. الآيتان رقم (٢٥، ٢٦). وكانت نهاية المعركة نصرا من الله للفئة المؤمنة الواثقة بنصر الله بعد أن أمدها الله بجند من ملائكته... وكانت الغنائم: السبى ستة آلاف رأس. والإبل أربعة وعشرون ألفا. والغنم أكثر من أربعين ألف شاة. وأربعين ألف أوقية من الفضة... وكان من ضمن السبى الشيماء بنت الحارث أخت الرسول من الرضاعة فلما رآها النبى عرفها وأكرمها وردها إلى قومها - بتصريف من الرحيق المختوم.

(٢) سورة الفتح. آية رقم (١٨).

(٣) خرج النبى من المدينة نحو مكة يوم الاثنين غرة ذى القعدة سنة ٦ هجريا ومعه زوجه أم سلمة وألف وأربعمائة من أصحابه بدون سلاح. كانت شروط الصلح كالتالى:

أ - يرجع الرسول من عامه فلا يدخل مكة ويأتيها العام القادم.

ب - أن توضع الحرب بين الطرفين عشر سنين.

والسكينة عنصر مهم جداً فى مواجهة الشدائد وبخاصة فى الحروب. لذلك نرى عبدالله بن رواحة رضى الله عنه يدعو ربه أن ينزل عليه وعلى من معه فى المعركة السكينة وأن يثبت أقدامهم فقال:

اللهم لولاك أنت ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة... علينا ::: وثبت الأقدام أن لاقينا
إن الأولى بغوا... علينا ::: إذا أرادوا فتنة أبينا

والنبى ﷺ موصوف فى الكتب القديمة بالسكينة... فقد وصف بأنه: (ليس بفظ ولا غليظ. ولا صخاب فى الأسواق. ولا يتزين بالفحش. ولا قوال للخنا. وأهب له كل خلق كريم. ثم أجعل السكينة لباسه. والبر شعاره. والتقوى ضميره). إن الحياة مع القلق والاضطراب جحيم لا يطاق وهى بذلك مصدر شقاء وتعاسة. لكن الحياة مع السكينة تشعر النفس بالسعادة. إن الحياة بلا سكينة ليس لها طعم مهما كان الثراء والغنا ووسائل الترفيه. فالغرب مثلا لا ينقص ساكنيه ترفيه ولا مال ولا لذات ولا شهوات. بل كل هذه الأشياء سهلة ميسرة لمن أرادها. ومع ذلك يوجد بينهم الاكتئاب والعقد النفسية والانتحار. والانغماس فى الادمان والجنس - وما يتبع ذلك من الأمراض الخبيثة - والسبب طبعا عدم طمأنينة القلب. وصدق ربنا إذ يقول:{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً} - هذا فى الدنيا - وفى الآخرة:{وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى}[1]. أما صاحب القلب الساكن بتوفيق الله فهو راض بكل ما يقضيه الله تعالى له وما يقدره عليه. لا تزيده النعماء إلا شكرا ولا تزيده إلا صبرا. فهو راض فى الحالين بعكس غيره الذى تتطيره النعمة وتضجره النقمة. قال تعالى:{إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}[2]. وقال أيضا:{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ}.

مميزات السكينة

ج - من أحب أن يدخل فى عقد مع محمد وعهده دخل فيه. ومن دخل فى عقد مع قريش وعهدهم دخل فيه.
د - من أتى الرسول من قريش مسلما بدون إذن وليه رده إليهم. ومن جاء قريشا ممن اتبع الرسول لا يردونه إليه.
(١) سورة طه. الأيتان رقم (١٢٤، ١٢٥).
(٢) سورة العلق. الأيتان رقم (٦، ٧).

١- سكون الخائف... فمتى استشعر الإنسان أن الله لا رد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا يقع فى ملكه إلا ما أراد اطمئن وسكن:{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (١).

ورسول الله ﷺ يقول لابن عمه عبدالله بن عباس رضى الله عنه: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. جفت الأقلام وطويت الصحف» (٢) وقد ضربنا أمثلة من تاريخ الرسول ﷺ والمسلمين معه فى أوقات الحروب وكيف كانوا مطمئنين بفضل سكينة الله التى تنزلت عليهم.

والخليل إبراهيم عليه السلام يرى النار مشتعلة يتطاير شرارها ويرتفع لهيبها ويتأجج جحيمها وينزل عليه جبريل ويسأله: ألك حاجة؟ فيقول عليه السلام: علمه بحالى يغنى عن سؤالى، ولو أن إنسان عاديا بلا سكينة لمات من شدة الخوف قبل أن يلقى فى النار.

والكليم موسى عليه السلام يدركه فرعون ويقول من معه:{إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} (٣). ففرعون بكل جبروته وطغيانه وجنوده بكل ما معهم من الأسلحة. وراءهم ويقتربون منهم فلم يزد موسى عليه السلام الذى أنزل الله سكينته عليه إلا أن قال:{كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}(٤)... فأى سكينة هذه التى تملأ قلوب الأنبياء وقلوب المؤمنين وابن تيمية كان يقول: ما يصنع أعدائى بى أنا جنتى وإيمانى فى صدرى أينما رحت فهى معى. إن حبسونى فحبس خلوة. وإن أخرجونى من بلدى فخروجى سياحة. و إن قتلونى فقتلى شهادة فى سبيل الله، إن فى صدرى كتاب الله وسنة رسوله، ومن كان الله معه فمم يخاف؟

٢- تسلى الحزين... إن صاحب القلب الذى لا تشع فيه أنوار السكينة قلب كريشة

(١) سورة الأنعام آية رقم (٥٩).
(٢) الحديث بمعناه رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.
(٣) سورة الشعراء آية رقم (٦١).
(٤) سورة الشعراء آية رقم (٦٢).

فى مهب الريح تطيرها الريح أينما تحركت؛ لأنه مربوط بأشياء متغيرة فهو متغير مثلها. مرتبط بالمال مثلا يفرح إذا جاء ويأسى إذا فقد: والله يقول:{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}. إن بعضهم قد يصاب بإغماء أو جلطة أو تصلب شرايين أو ضغط أو ما شابه إذا هزم فريقه الذى يشجعه ويتعصب له. وقد شاهدت كثيرا من المدربين لكرة القدم فى أثناء المبارا ة بمضغ (لبانة) ولما سألت عن سر ذلك قيل إن هذا نوع من استفراغ الطاقة والانفعال. إنه يضع كل همه فى (اللبانة)!!

لكن المؤمن صاحب القلب الساكن بسكينة الله لا يربط نفسه إلا بالله يدور مع أوامره ونواهيه حيث دارت ولا يعنيه إلا أن يرضى ربه عنه.

فليتك تحلو والحياة مريرة ::: وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ::: وبينى وبين العالمين خراب

قال رجل لامرأته: لأشقينك. فقالت له: إن سعادتى فى إيمانى. وإن إيمانى فى قلبى. ولا سلطان لأحد على قلبى إلا الله... حتى إذا شكا صاحب البلوى لم يشك إلا لله كما قال يعقوب عليه السلام{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}[1]. وقال رسول الله ﷺ حينما عاد من الطائف: «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس».

٣- ومن ثمرات السكينة أنها تحول بين المؤمن وبين معصية الله؛ لأن القلب الساكن يطمئن إلى وعد الله وحسن مثوبته ويشعر حينئذ بحلاوة العبادة ولذة المناجاة. يقول النبى ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» [2] فمن جمع هذه الصفات شعر بحلاوة الإيمان... وقال أحد العابدين: نحن فى لذة لو شعر بها الملوك لقاتلونا عليها بسيوفهم.

هذه بعض ثمار السكينة... فلنذكر بعض الثمار المرة للقلق والحيرة اللذين يصيبان القلب البعيد عن الله فنقول: يقول الأطباء: إن نسبة الكولسترول تزيد بنسبة خمسة وعشرين بالمائة فى نصف ساعة إذا تعرض الجهاز العصبي للإثارة [3]. والكولسترول

(١) سورة يوسف آية رقم (٨٦).
(٢) حديث متفق عليه وهو من رواية أنس رضى الله عنه
(٣) منبر الإسلام عدد يناير ١٩٩٥ صفحة رقم (٩٨).

يسبب تصلب الشرايين وجلطة القلب وجلطة المخ. ولقد حذرنا رسول الله ﷺ حينما قال: «لا تغضب.. لا تغضب»... ولقد أجرى التجارب على الجنود الأمريكيين الذين حاربوا فى فيتنام فى أثناء الغارات التى كان يشنها الجنود الفيتناميون فوجدت نفس النسبة.

ويبقى سؤال: إذا كانت السكينة من الله ينزلها على من يشاء من عباده. فكيف نتعرض لنزول هذه السكينة والجواب أنا أقوله فى:

١- إن الاجتماع على ذكر الله سبب لنزول هذه السكينة. قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» [١]... فاجلس فى بيت ربك فى وقت فراغك واستمع إلى دروس العلم أو اتل القرآن الكريم فإنك حينئذ أهل لأن تتنزل عليك السكينة. ويقول الله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ} [٢]... فبذكر الله تطمئن القلوب الحائرة وتسكن النفوس القلقة وتنشرح الصدور الضيقة. والبعد عن ذكر الله تعالى يجعل الإنسان عرضة لأن يتسلط عليه الشيطان كما قال الله تعالى{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [٣].

٢- التمسك بالإيمان... فذلك يهب القلب أمنا وطمأنينة وسكينة. قال تعالى:{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [٤] يروى أن رسول الله تلا هذه الآية فقال: «إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح. قالوا: يا رسول الله: هل لذلك أمارة؟ قال: نعم... الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت».

---

(١) حديث شريف رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة.
(٢) سورة الرعد الآيتان رقم (٢٨، ٢٩).
(٣) سورة الزخرف آياتان رقم (٣٦، ٣٧).
(٤) سورة الأنعام آية رقم (١٢٥).

وقال تعالى:{أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ}[1].
وقال:{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [2].

* * * * *

(١) سورة الزمر آية رقم (٢٢).
(٢) سورة الحجرات. آيتان رقم (٧، ٨).

obeikandl.com

من أخلاق المؤمنين:

الخشوع

{وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ}

obeikandl.com

الخشـــوع

الخشوع صفة من صفات المؤمنين الصادقين تجعلهم موضع الفوز والفلاح قال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِـعُونَ} [1]. والخشوع فى لغة العرب يعنى السكون والانخفاض. يقال: خشع الرجل إذا نظر إلى الأرض. ويقال عن الأرض التى لم ينزل عليها الماء أنها أرض خاشعة لأنها تكون يابسة وليس لها بهجة الأرض الخضراء. وعلى ذلك جاء قوله تعالى:{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِـعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [2]. فأنت ترى أنه وصف الأرض حين ينزل الماء عليها بالحركة والزيادة و إخراج النبات. أما الأرض التى لم يحدث لها ذلك فهى أرض خاشعة وهى التى تتصف بعكس ذلك.

ويقول علماء الأخلاق: إن الخشوع حالة يتصف بها قلب المؤمن فيظهر أثرها على الجوارح فإذا خشع القلب سكنت الجوارح.. وانظر إلى هيئة مصل خاشع لله. إنك تراه ينظر إلى محل سجوده واقفا. وبين قدميه راكعا. وإلى أنفه ساجدا. وإلى حجره جالسا - وهذا مظهر من مظاهر السكون والخشوع. وهذا المصلى الخاشع لا يتحرك إلا عند الضرورة القصوى أما الذى يعدل ثيابه ويعبث بلحيته أو شاربه. أو يلتفت يمينا أو يسارا أو يزيغ بصره إلى هناك فلا يقال عن مثل هذا أنه خاشع. ويدل على ذلك أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» فهذا الحديث الشريف الذى جاء فى هذا الموقف يدلك على أن الخشوع محله القلب ولكن أثره يظهر على الجوارح سكونا ووقارا وثباتا.

قال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب[3] ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يطأطيء رقبته فقال: يا هذا ليس الخشوع فى الرقاب.. وقال حذيفة: إيكم وخشوع النفاق وهو أن نرى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع وتلك صفة يحسها الإنسان بنفسه من نفسه. فإذا لم يجد خشوعا فى قلبه ولكنه يظهر بمظهر الخاشع فى سمته وهيئته فليعلم أن ذلك ليس خشوعا ورأت أم المؤمنين عائشة شبابا يمشون متماوتين بطاء الحركة فعلقت على هيئتهم بقولها: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع.

---

(١) سورة المؤمنون. الآية رقم (١).
(٢) سورة فصلت. الآية رقم (٣٩).
(٣) أخلاق القرآن. الجزء رقم (١) الصفحة رقم (١٧٢).

وإذا قال أسمع. وإذا ضرب أوجع. وإذا أطعم أشبع. وكان هو الناسك حقا، وقال إبراهيم النخعى: ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس: لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء فى الحق سواء: وتخشع لله فى كل فرض افترضه عليك[1].

ولقد عاتب الله سبحانه وتعالى بعض المؤمنين الذين قل الخشوع فى قلوبهم لما أصابوا بعض الترف بقوله عز وجل:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}.. [2] فالقلب الخاشع يخشع ويذل بين يدى الله سبحانه وتعالى عند ذكر الله وعند قراءة القرآن. فالمؤمن حينما يذكر جلال الله وعظمة الله يخشع قلبه. وهذا حاله أيضا عند سماع القرآن أو عند قراءته... ثم تتحدث بقية الآية عن أهل الكتاب الذين قست قلوبهم ولم تخشع فأصابهم الفسق. قال تعالى:{وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}.

ولأهمية الخشوع أنه داء وصفا لأنبياء الله تعالى فقال الله عز وجل:{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[3]. وجاء الخشوع أيضا وصفا للذين أسلموا من أهل الكتاب فقال تعالى:{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} [4]. وجاء وصفهم فى آية أخرى بأنهم:{تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} [5].

وإذا كان الكافرون والمنافقون قد قست قلوبهم ولم تخشع فى الدنيا فإن الخشوع بمعنى الذل والمهانة والحسرة سيلحقهم رغما عنهم فى الآخرة. فهو خشوع المجرم الجانى وليس خشوع العابد المبتهل فى محرابه: وقد جاء هذا المعنى فى أكثر من آية فى القرآن الكريم فقال تعالى عنهم:{يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ

(١) أخلاق القرآن. الجزء رقم (١). الصفحة رقم (١٧٢).
(٢) سورة الحديد آية رقم (٦).
(٣) سورة الأنبياء. الآيتان رقم (٨٩، ٩٠).
(٤) سورة آل عمران. الآية رقم (١٩٩).
(٥) سورة المائدة. الآية رقم (٨٣).

يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [1]فهؤلاء العصاة الذين أضاعوا أعمارهم فى الدنيا فى الكأس والطاس والعرى والعهر والفحش ونفورهم من كل معنى نبيل وخلق كريم سيجيبون الداعى إلى البعث والنشور رغما عنهم ذليلين: ويظهر ذلهم فى أعينهم المنكسة إلى الأرض من هول ما ينتظرهم قائلين: هذا يوم عسر كما قال ربنا عز وجل:{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [2].

وقال تعالى:{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّـةٌ} [3]. فالكافرون حين يشتد كربهم لما يعانون من هول النار وغضب الجبار لا يستطيعون السجود حين يطلب الله عز وجل منهم ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يسلب منهم المقدرة على ذلك وهنا تظهر حسرتهم وننكس أبصارهم وهذا جزاء تكبرهم عن السجود فى الدنيا وكانت أعضاؤهم تستجيب لهم لو أنهم فعلوا. ويقول الله تعالى:{قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} [4] فقد وصف الله قلوبهم بالاضطراب والخوف وبأن أبصارهم ذليلة... ونفس هذا الوصف للكافرين فى قوله تعالى:{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}[5] وهذه الوجوه هى وجوه الكافرين بدليل قوله تعالى بعد ذلك:{عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً} [6]. ثم وصف وجوه المؤمنين لتتم الموازنة بين عقاب الكافرين وثواب المؤمنين فقال تعالى:{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [7]

ومن خلال هذا العرض نستطيع أن نقول: إن الذى يخشع لله سبحانه وتعالى فى الدنيا يبعثه الله راضيا مرضيا عنه. أما هؤلاء الذين لم تخشع قلوبهم فى الدنيا فهم الذين يبعثون منكسى الرءوس خاشعى الأبصار.. وهذا هو الجزاء العادل كما ورد هذا المعنى

(١) سورة القمر. الآيتان رقم (٦، ٧).
(٢) سورة المدثر. الآيات أرقام (٨، ٩، ١٠).
(٣) سورة القلم. الآيتان (٤٢، ٤٣)... وقال جل شأنه فى سورة الشورى. الآية رقم (٤٥) مؤكدا ذل الكافرين فى الآخرة: (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) - وقال فى سورة المعارج. الآية رقم (٤٤): (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة).
(٤) سورة النازعات. الآيتان رقم (٨، ٩).
(٥) سورة الغاشية. الآيتان رقم (١، ٢).
(٦) سورة الغاشية. الآيتان رقم (٣، ٤).
(٧) سورة الغاشية. الآيات أرقام (٨، ٩، ١٠).

فى حديث قدسى شريف: «لا أجمع على عبدى خوفين ولا أمنين. فمن خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة. ومن أمننى فى الدنيا أخفته فى الآخرة» [١]. ومن أجل المواقف التى يظهر فيها الخشوع هو موقف المؤمن فى صلاته بين يدى ربه عز وجل؛ ولذلك جاء الخشوع فى الصلاة فى أول صفة المؤمنين المفلحين فى قوله تعالى{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [٢]ثم ذكر بعد ذلك بقية صفات المؤمنين والحق أن الخشوع فى الصلاة روح الصلاة وسر قبولها يقول ابن عباس رضى الله عنه: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» [٣]. ويقول النبى ﷺ: «إن العبد ليصلى الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها» [٤] وهذا الجزء هو الذى صلاة المصلى فى خشوع. أما الجزء الذى لم يكتب لصاحبه فإنه الجزء الذى صلاة بقلب مشتت أو بصر زائغ ولم يتحل بحلية الخشوع.

وهنا نسأل سؤال مؤداه هل الصلاة بدون خشوع مقبولة أم غير مقبولة؟ والجواب أنها غير مقبولة. وهل الصلاة بدون خشوع صحيحة أم فاسدة وتجب إعادتها مرة ثانية؟ والجواب: أن بعض العلماء مثل الإمام الغزالى قال بوجوب إعادة الصلاة التى يصليها الإنسان بدون خشوع. ولهم على ذلك أدلة نذكرها فيما يلى:

* قالوا: الصلاة كهدية تهدى إلى ملك من ملوك الدنيا. فلو أهديت إلى ملك شاة نافقة أو فاكهة فاسدة فهل يقبل الملك ذلك منك؟ إن عليك أن تبحث عن هدية أخرى تناسب قدر الملك... والصلاة بلا خشوع صلاة ميتة فكيف تظن أن تقع موقعا منه سبحانه وتعالى؟ فعليك أن تقدم صلاة أخرى خاشعة.

* لو ترك العبد ركنا من أركان الصلاة كالركوع والسجود فهل تقبل هذه الصلاة؟ الجواب لا. فنقول إذا كانت الصلاة لا تقبل بفقد ركن من أركانها فكيف تصح وقد فقدت ما هو أهم من أى ركن فيها وهو الخشوع.

* الصلاة تؤدى بالأعضاء حركات وسكنات وقولا بالتلاوة والذكر وبالقلب

---

(١) الحديث رواه بن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة.

(٢) أول سورة المؤمنين.

(٣) عن بلال بن رباح أنه أبصر رجلا لايتم الركوع ولا السجود فقال: لو مات هذا لمات على غير ملة محمد ﷺ.. رواه الطبرانى ورواته من الثقات.

(٤) الحديث بمعناه رواه النسائى بإسناد حسن عن أبى اليسر ورواه أبو داود عن عمار بن ياسر.

بالخشوع. والقلب من أهم الأعضاء فهو ملكها. و إذا صلح القلب صلح الجسد كله و إذا فسد فسد الجسد كله. فإذا تعطل القلب ولم يؤد عمله وهو الرئيس فلا قيمة لما تفعله بقية الأعضاء [١].

غير أن هناك رأيا آخر يرى أن الصلاة صحيحة وإن لم تكن مقبولة. فليس هناك ارتباط بين الصحة والقبول. والحديث القدسى ذكر بواجبات القبول بقوله: «**إنما تقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى. ولم يستطل على خلقى. ولم يبت مصراً على معصيتى. وقطع نهاره فى ذكرى. ورحم المصاب. ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتى واستحفظه ملائكتى. ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة**» [٢]. فأنت ترى أن بعض هذه الأشياء المذكورة فى الحديث لا علاقة لها بالصلاة. ونذكر بعض الأدلة على ذلك:

أن النبى ﷺ ذكر أن الشيطان قد يحول بين الإنسان وبين الخشوع لله ولم يأمر بإعادة الصلاة. وإنما أمر بسجود السهو فقال النبى ﷺ: «**إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضى الآذان أقبل فإذا ثوب[٣] بالصلاة أدبر. فإذا قضى التثوب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه يذكره ما لم يكن يذكر ويقول: أذكر كذا وكذا ما لم يكبر حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى**» [٤].

أن النبى ﷺ كان يقبل علانية المنافقين ويكل سرائرهم إلى الله تعالى. وبكل تأكيد كان رسول الله ﷺ وسلم يعرف بعض المنافقين ومع ذلك لم يأمرهم بإعادة الصلاة معه والمؤمن غير الخاشع أفضل حالا من المنافق. وكذلك صلاة المرائى. [٥] وإذا كان

---

(١) ذم أحد الشعراء غير الخاشعين فى الصلاة قائلا: التأكد من أصل الكتاب ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تصل بلا قلب صلاة بمثلها ::: يكون الفتى مستوجبا للعقوبة
تظل وقد أتممتها غير عالم ::: تزيد احتياطيا ركعة بعد ركعة
تخاطب إياك تعبد مقبلا ::: على غيره فيها لغيره ضرورة
ولو رد من ناجاك للغير طرفه ::: تميزت من غيظ عليه وغيره
أما تستحى من مالك الملك ::: أن يرى صدودك عنه يا قليل المروءة؟

(٢) الحديث رواه البزار عن ابن عباس. وفيه بعد " استحفظه ملائكتى ": " اجعل له الظلمة نزرا وفى الجهالة حلما.

(٣) يعنى أقام الصلاة.

(٤) الحديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٥) عند هذا الحد انتهى كلام الشيخ - رحمه الله - لم يتم موضوع الخشوع فإنى أكمله بإذن الله.

الخشوع مطلوب فى الصلاة لأنه روحها فهو كذلك مطلوب عند سماع القرآن الكريم وعند الذكر الحكيم. فكما جاء فى الحديث الشريف: «إن هذا القرآن نزل بحزن. فمن قرأه فليبكى أو يتباكى». وليس من المعقول أو المقبول أن يفتح المسلم المصحف ليتلو بعض الآيات وقلبه لاه مشغول. وليس من الجائز أن نسمع الآيات التى يتحدث الله فيها عن الآخرة أو عن عقاب الأمم السابقة. أو عن بطشه بالعصا والمجرمين وأنت غير منصت لا يشغلك من التلاوة إلا ما قاله الشاعر:

وهمهم إذا يتلى جمال الصوت والنغم

قال تعالى{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّـهِ} (١). وقال تعالى{وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ} (٢). فليس من اللائق أن تخشع الحجارة لكلام الله ويقسو قلب المسلم!! ولقد أثنى الله على المؤمنين فى القرآن الكريم بأنهم يخشعون عند سماع القرآن ويتدبرون فيه. ويقودهم هذا الإيمان والخشوع إلى السجود إلى عظمة البارئ قال تعالى:{وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً}. (٣) والخشوع الذى يظهره المسلم عند سماع كلام الله إنما هو مظهر من مظاهر الخشوع له فى الآخرة يوم تخرس الألسنة وترجف القلوب وتهتز المشاعر رهبة وخشية لجلال الموقف العظيم وسوء المصير. قال تعالى{وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً} (٤).

ميزات الخشوع

١- إنه يسهل العبادة على الطائعين.. فلا يجدون فيها مشقة ولا نصبا بل يؤدونها بهمة عالية ونفس راضية. لأن الخشوع سيطر عليهم فأذل نفوسا ألفت التمرد وعدم الانصياع فباتت قانعة بأن ما عند الله خير وأبقى. قال الله تعالى:{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ

(١) سورة الحشر. الآية رقم (٢١).
(٢) سورة البقرة. الآية رقم (٧٤).
(٣) سورة الإسراء الآيات أرقام (١. ٦. ١. ٧. ١. ٨. ١. ٩). ؟؟؟؟؟؟؟؟
(٤) سورة طه. الآية رقم (١. ٨). ؟؟؟؟؟؟

رَاجِعُونَ} [1].

فلولا الخشوع لما تمرسوا الصبر وألفوه وجعلوه سفينة نجاة لهم. ولولا الخشوع لما اعتادوا الصلاة وحافظوا عليها كما أمرهم الله بقوله:{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى}.. فالخشوع هو الذى هون عليهم العبادة. فاستعانوا به على أدائها بالصورة التى ترضى الله ففازوا وخاب غيرهم من الذين كبرت عليهم الطاعة. وشقت على نفوسهم التى أبت الخشوع وباتت آنفة منه رافضة له وترجع الآية سبب خشوع المؤمنين إلى أنهم فكروا فى الآخرة فعلموا أنهم من لقاء الله على موعد قريب وأنهم راجعون إليه. تاركين وراءهم سعار الدنيا وجشع الشهوات. فخشعوا لله الواحد القهار فأعانهم الله على العبادة وقبلها منهم.

قضاء المصالح.. فالخشوع سبب فى جلب الرزق ودفع الضر والفوز بالخير والبعد عن السوء والشر. ذلك لأن الخاشع حين يرفع يده بطلب منه - سبحانه وتعالى - فإنه يكون ذليلا ضعيفا راجيا خائفا يبرأ من حوله وقوته إلى مدد الله وقدرته. ولن يضن الله بنعمة أبدا على عبد دعاه بمثل هذا الخشوع والانكسار. قال تعالى حاكيا عن نبيه زكريا فى سورة الأنبياء الذى طلب منه الذرية الصالحة فاستجاب له ربه:{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}. فقد عللت الآية سبب الإيجاب وهو أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعون ربهم بالخوف والرجاء وكانوا خاشعين له. وإذا كان الله قد ختم بهذه الآيات الحديث عن قصة زكريا - عليه السلام - فإنه ليس من المستبعد أن يكون الوصف أيضا راجعا إلى من سبقه ذكرهم من إخوانه الأنبياء الذين دعوا الله فاستجاب لهم فى نفس السورة كأيوب الذى دعا بالصحة والعافية. ويونس الذى دعا بالرحمة والمغفرة. ويكون الله قد حقق رغباتهم بسبب الخشوع... والله أعلم.

٣- البعد عن الشيطان... قال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان. فالشيطان له مهمة محددة فى هذه الحياة وهى إغواء الإنسان والوسوسة له بالشر. وهذه الوسوسة تجعل الإنسان مشتتا فهو يفكر فى المال والجاه والمنصب. وهو تارة يفكر فى الغضب

(١) سورة البقرة. الآيتان (٤٥، ٤٦).

والانتقام ومعاداة الآخرين. وتارة يميل إلى المجون والعبث والانحلال وهكذا. فهو مشتت بين أهوائه ورغباته فتراه قلقا حيرانا بائسا.

أما الخاشع لله فإنه قد أفرغ قلبه من الدنيا وشواغلها. بل استحقرها وقمنها وذاب قلبه خشوعا لله ولعظمته ولقدرته وانشغل بالله. وهل للشيطان سلطان على قلب له من الإيمان والتقى مثل قلب هذا الخاشع؟ قال تعالى:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}.

٤- أعد الله للخاشعين من جزيل الفضل ونعيم الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أعد الله مغفرة ذنوبهم والرحمة بهم. والجنة تفتح أبوابها لاستقبالهم وهى هاشة باشة مرحبة مسرورة. قال تعالى:{وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [1] . ولأن للخشوع كل هذا القدر الكبير فإنه - سبحانه وتعالى - سيمنعه عند اقتراب الساعة من أقوام لن يقدروه حق قدره. قال حذيفة بن اليمان: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لا خير فيه ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعا. ولاشك أن نزع الله لخلق الخشوع من قلوب هؤلاء القوم دليل على مقته لهم وغضبه عليهم. وقد خاب وخسر من فسق عن أمر ربه وتكبر عليه واستهان بدينه. وسيأبى الله إلا أن يجعلهم خاشعين إن أبوا ذلك فى الدنيا فسيخشعون فى الآخرة. ولكن من ذلك الحساب وهوان المصير وسوء المنقلب والخزى والندم. قال تعالى:{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}.

* * * * *

(١) سورة الأحزاب. الآية رقم (٣٥).